مصطلحات علم النفس

ومشكلة ترجمتها وتعريبها

لمحمد مظهر سعيد
استاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية اصول الدين

٣ — التفكر والتفكير

يجد المتتبع لترجمة مصطلحات هذا الموضوع الهام في علم النفس نوعاً جديداً من التخبُّط في المؤلفات العربية . فقد اتفق الكتّاب والادباء والمؤلفون والمترجمون على اتخاذ كلة فكر او تفكير ترجمة لكلمتي Thought و Thinking الانكليزيتين ولكنهم تخبطوا في تحديد معنى العمليات العقلية التي يصح ان يطلق عليها كلة تفكير ، تخبطاً يستحيل معهُ على الباحث ان يعرف بالضبط حدود هذه العملية ووظيفتها والفوارق الجوهرية التي تميزها عن غيرها من وظائف العقل . فالادباء والكتّاب من ناحية اطلقوا كلة التفكير من غير قيد او تحديد ، على كل عملية يقوم بها العقل سواء أكانت مجرد تذكر حادثة قديمة او استحضار صورة ذهنية لشيء معروف او التأمل في امر يتمناه الانسان ويشتهيه او يشعر نحوه شعوراً خاصًّا او تدبُّر مستقبل وكيف يرجو ان يكون من غير ادنى تفريق بين ما هو حاضر امامهُ يدركه بحواسه وما هو غائب عنهُ يعرفهُ بصورته او ذكراه . فأصبح المعنى الدارج يتضمن كل سانحة شاردة وكل ذكرى تافهة ، وكل حلم من احلام النهار واليقظة ، وكل ما يترى في الذهن من حلقات متنافرة متناثرة غير منسجمة ولا متصلة ليست من التفكير الصحيح في شيء

وخطا رجال التربية وعلم النفس خطوة قصيرة فأطلقوه من ناحية اخرى على الفكرة التي تخطر في الذهن عن شيء او شخص لا يكون موجوداً ولا يدركه العقل عن طريق الحس كالذكريات والصور والخيالات — ونحا بعضهم نحو قدماء علماء النفس في الغرب فاعتبروا التفكير مرادفاً لمراتب الادراك المختلفة من ادراك المحسوسات الى العلاقات بين المواقف المحسوسة الى الاستقراء والملاحظة فالتجريد والتعميم والقياس الى التعليل في حين ان لكل من هذه العمليات العقلية شخصيتها التي تحتفظ بها وان اندمجت معاً في المواقف العقلية المعقدة . وسيجد القارىء من هذه المقتطفات أنهم الى جانب هذا اطلقوا الفكر (او التفكير) على هذه العمليات التي لا تمت للتفكير بصلة كالتحصيل والحفظ والاستظهار والانتباه والتصور والارادة . وهذه الامور التي تتصل

بالفكر اتصالاً وثيقاً ولكنها ليست منهُ كالفهم وادراك المعنى والعلاقات وادراك الكليات

١ — يقول المرحوم الشيخ شريف (ص ٣٥) الفكر هو قوة للنفس تتمكن بها مع استخدام العقل من الحصول على المعارف وحفظها واستحضارها (وهذا يقصد بهِ الذاكرة . وغريب جداً ان يفرق بين العقل والفكر)

٢ — ويقول الجارم (ص ٩٧) توجيه النفس وحصره « التفكر » في الحادث (وفي ص ٩٨) الانتباه توجيه « الفكر » وحصره فيما يعرض عليهِ من الاشياء (فهو في الاولى يقصد الانتباه وفي الثانية الشعور جملة)

٣ — ويقول قنديل (ص ٧٥) عند المقارنة بالتخيل : التفكير هو تكوين رأي في الصورة. فهو يشمل الصورة وما تدل عليهِ من حيث معناها وقيمتها (وأنهم من هذا انهُ يقصد التصور ولكني لست افهم معنى الحكم على الصورة الا اذا قصد بها المشكلة او الموقف الذي يفكر فيهِ الانسان وهذا ليس صورة . لأن الصورة الذهنية لا تتطلب حكماً)

٤ — ويقول الجارم (ص ١٠٧) وهو يمثل لضعف الارادة : كأن يظل الحفل مشتت الفكر (ومعنى التفكر هنا غير واضح على الاطلاق وكذلك العلاقة بين الفكر والارادة)

٥ — ويقول الشيخ شريف (ص ٩) — حركة النفس في فهم حقائق الاشياء وانها تسمى فكراً (وهذا يتضمن المعنى الصحيح للتفكير لولا انهُ استخدم كلمة الفكر بدون توضيح)

وفي (ص ٧٣) : اثر القوة الفكرية في تدبر المعاني (ومعنى تدبرها غير واضح على الاطلاق) وزاد الامر تعقيداً بقوله (ص ٧٧) اسناد الاشياء بعضها لبعض يسمى حكماً وتعقل او تفكر او تصرف الخ

٦ — ويقول قنديل (ص ١٥٨) التفكير هو موازنة شيء بغيره لادراك ما بينهما من علاقات قريبة او بعيدة . او ادراك ما بين الاشياء بعضها وبعض من اوجه الشبه (وقصر التفكير على خطوة واحدة من خطواتهِ وهي ادراك العلاقات والاقتصار في العلاقات المدركة على مجرد الشبه والتشابه نقص كبير)

٧ — وحدد (في ص ١٥٨) انهُ عملية ادراك الكلي نفسها وهذا تحديد غريب في بابهِ لان ادراك الكلي هو مجرد خطوة من خطوات التفكير وليس التفكير كله

اما التعليل Reasoning وهو نوع من انواع التفكير يقصد بهِ البحث عن علة الاشياء او اسباب المواقف فلم يحددها واحد منهم غير واصف بك فقد ترجمها في قاموسه بالقياس الفكري او النظر ولكنهُ قصر التعليل بهذه الترجمة على القياس واخرج الاستقراء الذي هو خطوة هامة من خطوات التعليل . فهل يستطيع القارىء الذي لم ينل قسطاً كبيراً من دراسة علم النفس الحديث في المراجع الغربية بلغاتها الاجنبية ان يعرف بالتحديد معنى التفكير والفوارق الجوهرية بين هذه العملية الهامة وغيرها من العمليات العقلية

ولكننا مع هذا نلتمس العذر كل العذر للمؤلفين والمترجمين . فقد وقع علماء الغرب الذين نقلوا

منهم في نفس هذا الخطأ حتى ادرك المحدثون ان التفكير الصحيح لا يتعين فيه ان تتوالى الوحدات بعضها وراء بعض وتتعاقب وترتبط مجرد ارتباط حسب . بل لا بد لها ان ترتبط ارتباطاً محكماً بحيث تستند كل خطوة الى سابقتها . وتعد التي تأتي بعدها فتكون حلقة متصلة في سلسلة الافكار . وكذلك لا يكون مجرد التأمل في شيء غير حاضر للحس تفكيراً . فقد يتخيل المرء حادثة منسجمة الاتصال . مترابطة الاجزاء كما يفعل القصصيون والروائيون من غير قصد اثبات شيء او نفيه او الاعتقاد في حقائق او نظريات او التصرف في موقف «عن طريق ايجاد العلاقات الصحيحة بين اجزائه حتى نستطيع الحكم عليه جملة في حدود هذه العلاقات التي يصبح الموقف بدونها عديم المعنى »[1]

فالتفكير بمعناه الحديث — الذي حدده الفيلسوف الامريكي جون ديوي وعنه اخذت المدارس الحديثة — « هو العملية العقلية التي يقوم بها العقل عند شعوره بأنهُ يواجه موقفاً معقداً غير مألوف لديه او مشكلة جديدة تتطلب منهُ ان يتصرف تصرفاً خاصًّا مقيداً بالظروف والعلاقات القائمة فعلاً — او التي يستنبطها العقل — بين اجزاء هذا الموقف . او بين هذا الموقف وموقف آخر يتصل بهِ او بمائله »[2] . وبعبارة اخرى «هو عملية عقلية يكيف بها الانسان نفسه حتى يتصرف في الموقف الذي يجدّ لهُ ويشعر المفكر ذاته بهذه الملاءمة ولو كان الموقف حسيًّا بحتاً »

فالاصل في التفكير اذن وجود مشكلة متشعبة الاطراف لها حل واحد او جملة[3] حلول يجدها العقل او يفضل واحداً منها على الباقية — او حالة ارتباك وشك تدفع العقل الى محاولة ايجاد مخرج منها او الوصول الى نظرية او رأي او مشروع تحل به عن طريق البحث وكشف الحقائق التي تساعد على الوصول الى الحل

وعلى وجه العموم لا يصح لنا أن نسمي العملية العقلية تفكيراً الاّ اذا تضمنت العناصر الآتية :

(١) — الشعور بضرورة التصرف في المشكلة القائمة (٢) — تقدير القيم النسبية للموقف واجزائه وادراك ما بينها من علاقات وتحليل الموقف لاستخلاص نتيجة معينة (٣) — الحكم على الموقف او الموضوع بالصحة او البطلان

وفي ضوء هذا الرأي يصح ان نعتبر ان التفكير يتم في كل مستويات الادراك وليس هو مقاصر على مستوى ادراك الكليات كما كان يقول قدماء علماء النفس والمنطق . ففي مرتبة الادراك الحسي يكون موضوع التفكير خاصًّا محدوداً مميزاً وفي الادراك الكلي يكون معقداً متناولاً لمجموعات كاملة او كليات مجردة عن الحس وهو كذلك يتضمن كل عمليات المقابلة وفرض الفروض والتجربة والتحليل والحكم التي كانت ولا تزال تعتبر في المنطق عمليات قائمة بذاتها

فاطلاق ترجمة التفكير على الاحساس والتذكر والتصور والخيال خروج عن الموضوع — وعلى مجرد ادراك العلاقات او الكلي او الحكم والتعليل تقييد مخل لا معنى له — وعلى الفهم والتأمل توسع غير مقبول . ومن شاء المزيد فليقرأ كتابي في الادراك والتفكير « علم النفس النظري والتعليمي »

---

(١) Betts : Mind & its Education (٢) Dewey : How We Think
(٣) Collins & Drever : Exp. Psychology